

المحاضرة الثانية في مادة السيرة النبوية

رحلته الأولى إلى الشام ثم كدحه في سبيل الرزق

ولما تم له ﷺ من العمر اثنتا عشرة سنة ، سافر عمه أبو طالب إلى الشام في ركب للتجارة ، فأخذه معه . ولما نزل الركب (بصرى) مرّوا على راهب هناك يقال له (بحيرا) وكان عليماً بالإنجيل خبيراً بشئون النصرانية وهناك أبصر بحيرا النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل يتأمله ويكلمه، ثم التفت إلى أبي طالب فقال له : "ما هذا الغلام منك ؟ فقال : ابني (وكان أبو طالب يدعو به بابنه لشدة محبته له وشففته عليه) فقال له بحيرا: ما هو بابنك وما ينبغي أن يكون أبو هذا الغلام حياً . فقال : هو ابن أخي . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به . قال بحيرا : صدقت، فارجع به إلى بلده واحذر عليه يهود فوالله لئن رأوه هنا ليلبغنه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم" . فأسرع به أبو طالب عائداً إلى مكة .

ثم أخذ رسول الله يستقبل فترة الشباب من عمره فبدأ بالسعي للرزق وراح يشتغل برعي الغنم، ولقد قال عليه الصلاة و السلام عن نفسه فيما بعد : (كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة) . وحفظه الله من كل ما قد ينحرف إليه الشباب من مظاهر اللهو و العبث .

قال عليه الصلاة و السلام فيما يرويه عن نفسه : (ما هممت بشيء مما كانوا في الجاهلية يعملونه غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني الله بالرسالة. قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر بها كما يسمر الشباب، فقال: أفعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً فقلت: ما هذا ؟ فقالوا عرس، فجلست أسمع، فضرب الله على أذني فممت فما أيقظني إلا حرّ الشمس فعدت إلى صاحبي، فسألني فأخبرته، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابني مثل أول ليلة، ثم ما هممت بعده بسوء .)

تجارته بمال خديجة وزواجه منها

كانت خديجة - كما يروي ابن الأثير وابن هشام - امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق، أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره، ومعه غلامها ميسرة . وقد قبل محمد ﷺ هذا العرض فرحل إلى الشام عاملاً في مالها ومعه ميسرة فحالفه التوفيق في هذه الرحلة أكثر من غيرها، وعاد إلى خديجة بأرباح مضاعفة، فأدى لها ما عليه في أمانة تامة ونبيل عظيم، ووجد ميسرة من خصائص النبي ﷺ و عظيم أخلاقه ما ملأ قلبه دهشة له، وإعجاباً به فروى ذلك لخديجة .

فأعجبت خديجة بعظيم أمانته، و لعلها دهشت لما نالها من البركة بسببه، فعرضت نفسها عليه زوجة بواسطة صديقتها (نفيسة بنت منية) فوافق النبي عليه الصلاة و السلام، وكلم في ذلك أعمامه فخطبوا لها من عمها عمرو بن أسد . وتزوجها عليه الصلاة و السلام وقد تم له من العمر خمسة وعشرون عاماً ولها من العمر أربعون . وقد كانت تزوجت خديجة قبل زواجها من رسول الله ﷺ برجلين، الأول منهما عتيق بن عائذ التميمي ، ثم خلفه عليها أبو هالة التميمي واسمه هند بن زرارة .

اشتراكه ﷺ في بناء الكعبة

الكعبة أول بيت بني على اسم الله ولعبادة الله وتوحيده فيه، بناها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام بعد أن عانى من حرب الأصنام وهدم المعابد التي نصبت فيها .. بناها بوحي من الله تعالى وأمر له بذلك (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) .

وقد تعرضت الكعبة بعد ذلك للعوادي التي أوهت بنيانها وصدعت جدرانها، وكان من بين هذه العوادي سيل عرم جرف مكة قبل البعثة بسنوات قليلة، حيث زاد ذلك من تصدع جدرانها وضعف بنيانها، فلم تجد قريش بدا من إعادة تشييد الكعبة حرصاً على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة ولقد كان احترام الكعبة وتعظيمها بقية مما ظل محفوظاً من شرعة إبراهيم عليه السلام بين العرب.

ولقد شارك رسول الله ﷺ قبل البعثة في بناء الكعبة وإعادة تشييدها مشاركة فعالة، فلقد كان ينقل الحجارة على كتفه ما بينها وبينه إلا إزاره وكان له من العمر إذ ذاك خمس وثلاثون سنة في الأصح.

وروى البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما بنيت الكعبة، ذهب النبي ﷺ والعباس ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنبي ﷺ : إجعل إزارك على رقبتك، فخرّ إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء فقال: أرني إزارني فشده عليه .

ولقد كان له ﷺ أثر كبير في حل المشكلة التي تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه، فقد خضع جميعهم لاقتراحه الذي أبداه حلاً للمشكلة، علماً منهم بأنه الأمين والمحبوب من الجميع .

إختلاؤه في غار حراء

ولما أخذت سنّه تدنو نحو الأربعين، نشأ لديه حب للعزلة بين الفترة و الأخرى، وحب الله إليه الإختلاء في غار حراء - وحراء جبل يقع في الجانب الشمالي الغربي من مكة - فكان يخلو فيه ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشرة وتارة أكثر من ذلك إلى شهر، ثم يعود إلى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى، ويعود الكرة إلى غار حراء، وهكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك.